أدب الأطفال فى فلسطين
أدب أزمات دائمة ومتجدّدة

أ. د. عبد المجيد زراقط
الجامعة اللبنانية

فضاء الأدب وتميُّزه:

يعيشُ الطِّفل الفلسطينى فى واقع / فضاء صراع دائم وحروبٍ لا تنتهى، سواءً أكان ذلك فى قطاع غزَّة أم فى الضفَّة الغربية أم فى فلسطين المحتلَّة منذ العام ١٩٤٨.

وقد تمثَّل أدباء الأطفال الفلسطينيون هذا الواقع / الفضاء المعيشى، ومثَّلوه أدباً يوجَّه إلى الطِّفل الفلسطينى المعانى فى المقام الأول، وإلى الطِّفل فى أى مكانٍ فى العالم، فقصَّة "حنتوش" لصالحة حمدين، على سبيل المثال، فازت بجائزة "هانز كريستيان" الدَّولية للقصة الخيالية، وهى تصوِّر، بلغةٍ بسيطة، عالم الطفل الفلسطينى الذى يعيش فى خيمة صغيرة فى وادى "أبو هندى" مع أهله وسبعين نعجة، ويتعلم فى مدرسة من القصب، وتحيط بخيمته أرضٌ مزروعة بالألغام، ويطارده رصاص جنود المحتلِّ على الدوام...

هذا الطِّفل يتخيَّل، للخروج من هذا الواقع المأزوم، فيبدع شخصية "الخروف حنتوش" الذى يطير به إلى "برشلونة"؛ حيث يقابل "ميسى"...، ويلعب معه، ويُدخل فى مرماه خمسة أهداف، ويرفض أن ينضم هو و"حنتوش" إلى فريق هذا اللاَّعب الدَّولى المشهور، ويعود إلى "أبو هندى"؛ لأن الأغنام تنتظره، فلا أحد غيره يحلبها، فأبوه فى السِّجن منذ ستِّ سنوات وبقى له تسع عشرة سنة...

تصوِّر هذه القصَّة، إضافة إلى عالم الطِّفل الفلسطينى الذى يعيش فى قلب الصّراع، عالم الطِّفل الآخر الذى يحيا حياة طبيعية، فتشكِّل ثنائية ضدِّية كاشفة؛ وهى إذ تبيِّن أن هذا الطفل يرغب فى الخروج من هذا العالم، ويحقِّق ذلك من طريق التخيُّل، فإنَّها تبيِّن أيضَاً أنَّه يريد أن يعود إليه، وهو يقول للعالم: ها أنا طفلٌ أعانى، لكنى أحبُّ اللعب مثل أى طفلٍ آخر، فى العالم وألعب، وأغلب،... وأفضِّل أن أعود إلى وطنى على البقاء معكم.

ويقرِّر أن يعود إلى عالمه الذى خرج منه، لينشط فيه، ويحقِّق الهدف الأساس فى سعيه، وهو البقاء وانتظار التغيير، بقاء الأسرة، والشَّعب...

هذه هى قضية أساس من قضايا أدب الطفل الفلسطينى الذى يعيش أزمةً دائمة تتعدَّد وجوهها وأشكالها، وقد توصل هذا الأدب إلى أن يرقى إلى مستوى العالمية. وفى ما يأتى، نحاول أن نقدِّم معرفةً به وبقضاياه وخصائصه.

اختلاف التجربة وصعوبات الكتابة:

يتحدَّث محمَّد بكر البوجى عن صعوبات الكتابة عن أدب الأطفال الفلسطينى، فيقول: عندما أردت الكتابة عن هذا الأدب، تحيَّرت عن أى طفل أكتب، وسألت: هل أكتب عن طفل نكبة ١٩٤٨، أو عن طفل هزيمة ١٩٦٧، أو عن طفل "أوسلو"، أو عن طفل المنفى؟

وإن أردت التمييز بين هذه الأمكنة، يضيف: تكثر الأسئلة، ومنها: هل هذه الطفولة متشابهة فى الوضع الاقتصادى والاجتماعى؟ وهل والد الطفل، فى قطاع غزة والضفة الغربية الذى يتقاضى ما يعادل ثلاثمئة دولار أمريكى شهريَّاً، قادر على شراء كتاب أدب أطفال لابنه؟

الأمر المحزن الذى واجهنى، كما يقول، هو خلو المكتبات العامَّة والخاصَّة من كتب تدرِّس أدب الأطفال...، إضافةً إلى أنَّ ما صدر فى فلسطين من قصص للأطفال لا يلبِّى حاجة الطفل الفلسطينى، فقد أصدر اتحاد الكتاب الفلسطينى، منذ إنشائه فى الثمانينيات، ثلاثين قصة للأطفال، وإذا تصفحنا كتاب "فهرست" اتحاد الكُتاب الفلسطينيين، الصادر فى القدس سنة ١٩٩٥، نجد أكثر من ستمئة عنوان، منها ثلاثة عشر عنوانًا للأطفال فقط، بنسبة ٢% للأطفال، علمًا أنَّ عددهم فى فلسطين يزيد على ٥٦% من العدد الكلِّى للسكان[1].

الطِّفل الفلسطينى يختلف عن أى طفلٍ فى العالم، فما يمكن قوله: ليس من طفل فلسطينى واحد، وإنَّما هناك أطفال فلسطينيون، وهم الطفل الذى لا يزال مقيمًا فى فلسطين المحتلَّة، منذ نكبة ١٩٤٨، فهذا يعيش ظروف الاحتلال، وفقد الأمن والطمأنينة، ومحاولات سلب الهوية، والطفل الذى يعيش فى الضفة الغربيَّة وغزَّة، وهذا يعانى من الاعتداءات الإسرائيلية الدائمة، ومنها: هدم المنازل، ومنع التجوُّل، ووقائع القتل والاعتقال والضَّرب، والمداهمات النَّهارية والليليَّة، والحصار وإقامة الحواجز، والتنكيل والإهانات... وبثّ الفضائيات التى تتحدَّث عن هذا كلِّه، والطِّفل الذى يعيش فى المخيمات، والمشترك فيها جميعها، ضيق المكان وعدم توافر شروط العيش الصالح، وفقد الاستقرار والطُّمأنينة والعلاقات غير السويَّة بين الفصائل الفلسطينية نفسها، وبينها وبين السلطة المحلِّية التى تصل، فى حالات كثيرة، إلى اشتباكات ومداهمات واعتقالات وقتل، وعدم تلبية حاجاته الأساسية والترفيهية كما ينبغى، هذا من دون أن تغيب عنَّا كثرة ذوى الحاجات الخاصَّة من الأطفال الفلسطينيين.

كما تختلف علاقة فلسطين بالمحتل الإسرائيلى عن أى احتلالٍ آخر، فالاحتلال الإسرائيلى استعمار واستيطان، وتمييز عنصرى، وسعى ليس إلى سلب الأرض فحسب، وإنَّما إلى سلب الهوية التاريخية والثقافية، أيضًا،... وعمومًا سعى إلى إلغاء فلسطين وشعبها. لهذا، فإن أدب الأطفال الفلسطينى، يكتب من منظور قوامه التمسُّك بالأرض والجغرافيا الفلسطينية، والهوية الفلسطينية، إضافة إلى القضايا الإنسانية والإنمائية.

أولاً ـ فى الضَّفة الغربية وقطاع غزَّة:

قراءة فى نماذج قصصية:

أدرك أدباء "أراضى السلطة الفلسطينية"، هذه الحقيقة، فنقرأ على سبيل المثال، بعض القصص، ونتبيَّن ذلك، ففى قصة "كرمة آخر العنقود"[2] لسامح عبوشى، تداهم قوات الاحتلال "بيت كرمة"، وتخرب كل شىء فيه، وتكسر التلفاز الذى كانت تحبُّه كرمة، ما يطرح سؤالاً هو: ماذا تفعل كرمة والأطفال؟ إنّ البيت يعنى الأمن والأمان، وفضاء العلاقات الأسرية والاجتماعية...، إنَّ فَقْد هذا المكان وتخريبه مخيف، وخصوصًا فقد الأداة الوحيدة التى بقيت للأطفال ليتسلَّوا...، تجيب القصة عن هذا السؤال: بكل بساطةٍ، قام الأطفال بتحويل صندوق التلفاز إلى مسرح دمى، وراحوا يلعبون...، هذا عمل مقاوم يتيح للأطفال أن يواصلوا عيشهم متعاونين، محقِّقين إنجازًا يبعث الثقة فيهم من نحوٍ أوَّل، ويسلِّيهم من نحوٍ ثانٍ...

([1]) راجع: محمَّد بكر البوجى، "أدب الطفل العربى فى فلسطين بين الواقع والطموح"، مؤسسة آنا ليند، البرنامج الإقليمى لأدب الأطفال العرب.

([2]) سامح عبوشى، كرمة آخر العنقود، القدس: مركز مصادر الطفولة المبكرة، ١٩٨٦.

وإذ يرى الأطفال طائرات المحتل تحلّق فى الفضاء، وتقصف، وتدمّر، وتقتل، يحلم الأطفال بالخروج من هذا العالم، أو بتحقيق إنجاز يطرد الخوف من النَّفس، ففى قصَّة "إيمان والطائرة الورقيَّة"(١) لديمة كويل، تحمل الطائرة إيمان، وتُحَلِّق بها، وتبتعد، لتأخذها إلى عالمٍ ليس فيه محتل ظالم. هذا حلم يحقِّق رغبةً إنسانيَّة فى العيش فى عالم يخلو من همجية المحتل. وفى قصة "الطائرة"(٢) لزكريا محمد، ترتفع "الطَّائرة" الورقية الملوَّنة بألوان العلم الفلسطينى، وترتفع، لتصبح أعلى من طائرة "الأباتشى"، الآتية بالرُّعب والقتل والدَّمار، وهذا حلم آخر، يجعل العيش محتملاً من نحوٍ أول، وينظر إلى تحقيق توازنٍ فى القوى من نحوٍ آخر.

هذا ما يحلم به طفل الأرض المحتلَّة، أما ما يحلم به طفل المخيم، فهو العودة إلى فلسطين، فكيف يتحقَّق هذا الحلم؟

تعود أناستاسيا ماهر قروانى، فى قصَّة "ريحان وجنية الغيوم"(٣) إلى الحكاية الشعبيَّة، فتروى حكاية جنيَّة، تحمل الطفل فى طائرة ورقية، وتطير به فى أجواء وطنه فلسطين، فيرى بلاده، ويحيا فى عالمٍ سحرى يتحقَّق فيه حلمه بالعودة إلى وطنه.

إنَّ هذه الأحلام تحمل قيمة ترفيهية تتمثل باللعب والخروج من الواقع المعيشى الصَّعب من نحوٍ أوَّل، وقيمة وطنية تتمثَّل فى السعى، ولو من طريق الحلم، بالخلاص من هذا الواقع من نحوٍ ثانٍ، والحلم يمكن أن يتحوَّل إلى حقيقة عندما تصبح مقاومة المحتل ممكنة، إن توافرت الإمكانات، فالحلم يجعل العيش محتملًا إلى أن يحين أوان تحقيقه، فهو يتيح، إضافةً إلى التحمُّل، عدم القبول والسعى إلى تغيير عالم مرفوض بالإمكانات المتاحة.

وإذ يعمد المحتل إلى إقامة الجدار العنصرى، منذ حزيران سنة ٢٠٠٢، على الأراضى الفلسطينية، بارتفاع تسعة أمتار، ما أدى إلى تقسيم القرى الفلسطينية إلى أقسام يقع بعضها داخل الجدار وبعضها الآخر خارجه، واجه أطفال هذه القرى مشكلة فَصْل بعضهم عن بعضهم الآخر، وكان عليهم أن يحلُّوا هذه المشكلة، وأن يتحدَّوا المحتلَّ، فقاموا بعملية تتيح لهم اللقاء فوق الجدار العنصرى، وفي ظلال العَلَم الفلسطينى، ففى قصة "فى فضاء واحد"(٤) لمريم حمد، نقرأ قصَّة صديقين كانا لا يفترقان إلاَّ فى ساعات النوم، وبعد قيام الجدار، لم يتمكن واحدهما من رؤية الآخر، فيلجآن معًا إلى وسيلة، وهى الطائرة الورقية، يصنع كل منهما طائرته، ويلوِّنها بألوان العَلَم الفلسطينى... ويطيِّرها فوق الجدار، وتلتقى الطائرتان اللتان يراقصهما الهواء، وتروق الفكرة للأطفال الآخرين، وترتفع طائراتهم فى الهواء، مشكِّلةً تظاهرة من الأعلام الفلسطينية المتحدِّية المعلنة هوية الناس والأرض، الرافضة للاحتلال وإجراءاته.

وفى قصَّة "زهر الحنُّون"(٥) لعزة العزَّة، تطير ليلى مع الفراشات، تجتاز جدار الفصل العنصرى، إلى أرض فلسطين، ترى زهر الحنُّون ينتشر فيها، أحمر قانيًا لا تختلف

---

(١) ديمة كويل، إيمان والطائرة الورقية، رام الله: مؤسسة تامر، ٢٠٠٨.

(٢) زكريا محمد، الطائرة، رام الله: مؤسسة تامر، ٢٠٠٣.

(٣) أناستاسيا ماهر قروانى، ريحان وجنية الغيوم، بيت لحم: مركز بديل، ٢٠١٢.

(٤) مريم حمد، فى فضاء واحد، رام الله: مركز أوغاريت الثقافى، ٢٠٠٨.

(٥) عزَّة العزَّة، زهر الحنون، بيت لحم: مركز بديل، ٢٠١٢.

زهرة عن أخرى، وتتأكَّد أن هذا الجدار الأسمنتى الطارئ لم يغيِّر شيئًا، ولن يغيِّر شيئًا، فالأرض هى هى، وزهرها هو هو...، وما فعله هو أنه جعل الزهرة النابتة فى أسفل الجدار حزينة؛ لأنها فارقت أختها النابتة فى الجهة الأخرى...

وفى قصَّة "شباك رشا"(١) لعبلة طوباسى، تشارك رشا، فى مقاومة المحتل، على الرغم من أنَّ رجلها مكسورة، بمراقبة دوريات المحتل، وتنبيه الأطفال إلى قدومها، بوساطة صفارتها التى يعلو صوتها عندما تتقدم هذه الدوريات من الأطفال، ما يدلُّ على أنَّ ذوى الاحتياجات الخاصة قادرون على المشاركة فى المقاومة.

عيِّنات قصصيَّة دالَّة:

ترى روز شوملى مصلح: "إنَّ أدب الطِّفل، فى فلسطين، صار متوازنًا، من حيث اهتمامه بالمراحل النمائية، ومحافظته على الارتباط بالأرض وبالتراث، فى الوقت نفسه الذى يسعى فيه هذا الأدب إلى بلورة شخصية الطفل الفرد، هناك تركيز على العمل الجماعى، والعمل التطوعى، والإبداع، والمبادرة، والحسِّ الناقد، وروح الدعابة... إنَّه بالإضافة إلى ذلك، فتح أبواب الأمل للأطفال بغدٍ جميلٍ، إضافة لخلق بدائل غير العمل المسلح كخيارٍ وحيدٍ، ليقوم به الأطفال، حسب أعمارهم وقدراتهم... ومعظم أشكال المقاومة التى قام بها الأطفال كانت سلمية..."(٢).

اختارت روز شوملى مصلح عيِّنة تفيد أنَّ قصص الأطفال الفلسطينى قد أخذ مادته القصصيَّة من وقائع الحياة اليوميَّة، وقدَّمها للأطفال من منظور مقاوم، يصوِّر عالمًا قصصيًّا ينشط فيه الطفل من دون خوف، ولا يقبل الواقع الذى يعيش فيه تحت سلطة المحتل، ويرفضه، ويسعى إلى الخلاص منه، وإن من طريق الحلم الذى يحقِّق الخروج منه، أو الذى يحقِّق العالم البديل، فى فضاء الاحتفاظ بهوية الأرض والوطن والإنسان، أو من طريق الاشتراك بأعمال مقاومة بسيطة كالمراقبة والتحذير ورشق الحجارة...

وتخلص سوسن مروة، فى دراستها: "الاحتلال والعنف والتهجير فى أدب الأطفال فى فلسطين" التى تبحث فيها فى عينة من القصص تتألف من خمس وعشرين قصَّة، مختارة من مئة وثمانية وعشرين عملاً قصصيًا منشورة فى فلسطين إلى القول: "تفاوتت قصص الأطفال التى عايناها فى كيفية تمثيلها لقضايا الاحتلال ومقاومته، والتوق للحرية والدفاع عن العناصر الثقافية فى الهوية الفلسطينية، فغالبية هذه القصص لم تتمكن من الإفلات من قبضة المباشرة فى طرح تلك القضايا، وكانت أقرب إلى الشعارات السياسية التعبوية المباشرة، مفتقدة للكثير من جمالية اللغة والأسلوب، واقعة فى شرك التقليد. لكن قصص العينة تمكنت، فى معظمها، من تناول ما تختلج به قلوب الأطفال من معاناة وتوق شديد لعيش طفولتهم بعيدًا عن أجواء الحرب والعنف، فى حين تميزت القصص والروايات الموجَّهة للفتيات والفتيان بنماذج طفلية تطمح للمقاومة وتخليص الوطن من الاحتلال"(٣).

(١) عبلة طوباسى، شباك رشا، رام الله: مؤسسة تامر، ٢٠٠٦.

(٢) روز شوملى مصلح، "الاحتلال وأدب الأطفال الفلسطينى"، شئون فلسطينية، العدد ٢٥٣ ـ ٢٥٤. وقد تمَّت الإفادة من هذا البحث فى التعرف إلى النماذج القصصيَّة...

(٣) قصتنا قصة، أدب الأطفال اليوم، م. س.، ص ٧٢ ـ ٧٧.

فى خصائص أدب الأطفال الفلسطينى:

فى الضفَّة والقطاع:

فى ضوء ما سبق، يمكن القول: يتميز أدب الأطفال الفلسطينى، من أى أدب آخر، بخصائص منها:

١ -غزارة الإنتاج وصعوبة العثور عليه، وإن تمَّ العثور على نماذج منه، فهى لا تمثل مسارًا متصلًا، علاوة على أنَّ قسمًا كبيرًا منه مفقود.

٢ -كتابة هذا الأدب متقطِّعة، مشتَّتة، فقد يكتب الأديب الفلسطينى فى لبنان، فيضطر للانتقال إلى سورية، أو الأردن، أو فلسطين...، إضافة إلى أنها تختلف باختلاف المكان الذى تكتب فيه: الأرض المحتلَّة، الضَّفة الغربية، غزَّة، الشتات، المملكة الأردنية الهاشمية.

٣ - اختلاف قضاياه باختلاف الفضاء القصصى، فلكل فضاء قضاياه، ونستطيع القول: إنَّ هذه قضايا فرعية، فالقضية المركزية هى قضية الوطن وهويته، ولهذا فإنَّ الهم الوطنى هو الهم الأساس فى هذا الأدب، ويتمثَّل هذا الهم فى مقاومة الإلغاء أيًّا تكن أشكاله.

٤ - بروز ظاهرتين فى كثير من نماذجه، أولاهما العودة إلى الماضى – التاريخ المجيد، والحياة الطيِّبة، وثانيتهما الخطاب الحماسى الناطق بالمقاومة، والذى يتَّخذ شكل الخطاب المباشر، الواعظ، أو المحرِّض...

٥ – كثرة القصص التى تعتمد تقنيَّة الحلم، فعندما تتم معاناة العجز عن تحقيق الرَّغبة/ الهدف، فى واقع محبط، يتم اللجوء إلى الحلم ليكون الوسيلة المقاومة للعجز، ولا يخفى أن ظاهرة العجز شاملة فى الوطن العربى، لهذا يتَّصف الأدب العربى بعامَّة بهاتين الظَّاهرتين المذكورتين أعلاه.

٦ - وجود حصار ثقافى فى الضَّفة الغربيَّة وقطاع غزَّة والأرض المحتلة – ٤٨، وقلة الإنتاج المحلى، ومراقبة ما يدخل وما يُطبع.

٧ - إنَّ أهم قضية من قضايا أدب الطفل الفلسطينى، الذي يعانى هذه المعاناة الشاقَّة والمعقَّدة هى البقاء / الوجود شخصية وهوية وبعث الأمل فى الانتصار، من طريق مقاومة المحتل بمختلف الطرق المتاحة، وبعث ثقافة المقاومة بديلة من ثقافة الخوف.

تحقيق مستوى متميِّز:

يبدو أنَّ أدب الأطفال الفلسطينى، فى الضفة والقطاع، حقق مستوى متميزًا جعل مؤسسة من مؤسساته، هى "مؤسسة تامر الفلسطينية للتعليم المجتمعى"، تنال "جائزة استدريدلندغرين" السويدية التذكارية لأدب الطفل سنة ٢٠٠٩، من بين ١٦٣ مرشحًا، من ستين دولة، وتعمل هذه المؤسسة على تعزيز القراءة فى الضفة والقطاع منذ سنة ١٩٨٩، تلبية للاحتياجات التعليمية، فى أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى.

والجائزة المذكورة سنوية، وجاء فى تقرير لجنتها المحكمة عن جهود مؤسسة تامر أنَّ هذه المؤسسة "كرَّست طاقة الكلمة، وقوة الكتب والقصص والخيال، بوصفها جميعًا مفاتيح أساسية للاعتداد بالنفس واحترام الذات، والتسامح ومواجهة الحياة بشجاعة، وهذا ما كانت تشدِّد عليه كاتبة الأطفال الراحلة "استدريدلندغرين" التى انطلقت الجائزة فى ذكراها".

والمعروف أنَّ هذه المؤسسة تبذل جهودًا فى تشجيع القراءة والكتابة، ما أسهم بشكلٍ أساسى فى ظهور عددٍ من الكُتَّاب الشباب الذين يكتبون أدب الأطفال في هذه الأيَّام[١].

ثانيًا ـ فى فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨:

القضيَّة الأساس الهويَّة الوطنيَّة:

يواجه الفلسطينيون، فى فلسطين المحتلَّة، منذ نكبة ١٩٤٨، سعى المحتل إلى "أَسَرْلَة" الفلسطينيين وأرضهم وحضارتهم، وسلخهم عن تاريخهم وأشقائهم الفلسطينيين والعرب، وعن أمَّتهم، ولهذا تتمثَّل القضية الأساس فى أدب الأطفال الفلسطينى فى الأرض المحتلة فى تعريف الطفل بوطنه فلسطين ووطنه العربى، وتنمية مفهوم الوطن، وتعزيز انتمائه إليه، وحثِّه على البقاء فيه وعدم الذوبان فى المجتمع الآخر، والاستعداد للدفاع عن الهوية الوطنية مهما كلَّف ذلك من تضحيات، والفخر بذلك، إضافة إلى قضايا ومسائل أخرى يفرضها الواقع المعيشى تحت سيطرة الاحتلال.

من الوقائع الأدبيَّة الدَّالة على ما نذهب إليه أن محمود درويش كان يلقى قصيدته "سجِّل أنا عربى" من على منابر فلسطين المحتلَّة، ولا يلقيها من على منابر الأقطار العربيَّة الأخرى؛ وذلك لأن هذه القصيدة تؤدِّى وظيفة وطنيَّة فى الدَّاخل الفلسطينى، وهى تأكيد هوية الفلسطيني فى فلسطين المحتلَّة، وإعلان ذلك، وجعل القصيدة نشيدًا يتم ترديده فى كلِّ مقام يستدعى ذلك. نلحظ هذا منذ القديم، فنقرأ لاسكندر الخورى:

"يا فلسطين الوطن، أنت لى طول الزَّمن
أنت لى أحلى سكن
يا فلسطين الوطن..."

وفى ما بعد نظم توفيق زياد (١٩٢٩ – ١٩٩٤) "أنشودة البقاء"، وزياد شاعرٌ، ولِد فى الناصرة، أكمل تعليمه الجامعى فى موسكو، وانتُخِب رئيسًا لبلدية الناصرة، منذ العام ١٩٧٥ حتى وفاته فى حادث سير. من مؤلَّفاته ديوان: "أشد على أياديكم"، الصادر فى حيفا وبيروت سنة ١٩٦٦. ينشد زياد باسم الفلسطينيين الباقين فى أرضهم:

"هنا باقون
كأنَّنا عشرون مستحيل
فى اللِّد والرَّملة والجليل
هنا...، على صدوركم باقون كالجدار
وفى حلوقكم
كقطعة الزُّجاج، كالصبَّار
وفى عيونكم
زوبعة من نار
هنا على صدوركم باقون كالجدار"

---

(١) راجع: موقع صوت البارد الحر، .nahralbared.com ٢٠٠٩/٣/٣١.

حرية الشعب:

غنت فدوى طوقان (١٩١٧ – ٢٠٠٣، نابلس) لحريتها التى تناضل من أجل نيلها، والتى يردِّدها النهر المقدَّس والضِّفتان:

"حريتى!
حريتى!
حريتى!
صوت أردِّد بملء فم الغضب
تحت الرصاص، وفى اللهب
وأظل، رغم القيد، أعدو خلفها
وأظل، رغم القيد، أقفو خطوها
وأظل محمولاً على مدِّ الغضب
وأنا أناضل داعيًا: حريتى!
حريتى!
حريتى!
ويردِّد النهر المقدَّس والجسور
حريتى
والضفتان تردّدان: حريتى"[١].

ويعلو صوت وجيه سالم هاتفًا للحرية:

حـريتـى حـريتـى	روحـى فداكى ومهجتـى
منـك استقيت الأملا	وبك ارتقيت إلـى العلا...[٢]

قراءة فى أنموذجين دالَّين:

إن يكن بعض كبار الكُتَّاب الفلسطينيين قد كتبوا نصوصًا تبدو لا علاقة لها بالقضية الفلسطينية، فإنَّ قراءة متأنِّية فيها تفيد أنَّ دلالتها سياسية. نقرأ، فى ما يأتى، أنموذجين من هذه النصوص: أولهما لغسان كنفانى من "الشتات" الفلسطينى، وثانيهما لتوفيق زياد من فلسطين المحتلَّة.

كتب غسان كنفانى، ورسم قصَّة طويلة للأطفال عنوانها: "القنديل الصغير"، صدرت عن دار الفتى العربى، فى طبعة أولى، سنة ١٩٧٥، وفى طبعة ثانية سنة ١٩٧٧، وفى طبعة ثالثة سنة ١٩٨٠،... وهذا يفيد أنَّ هذه القصَّة لقيت رواجًا، وهى تحكى قصة أميرة صغيرة، توفى والدها الملك، وأوصى بأن تتولَّى الملك إن استطاعت أن تُدْخِل الشمس إلى القصر،

(١) فدوى طوقان، الديوان، بيروت: دار العودة، ص ٥٥٤.

(٢) وجيه سالم، ديوان أغانى الطفولة، م. س.، ص ٦٩.

وإلاَّ ستعاقب بأن تمضى حياتها فى صندوقٍ مغلق. تحاول الأميرة أن تمسك الشمس من على رأس جبل، لكن الشمس كانت بعيدة، فتجلسُ فى غرفتها حزينة، لكن ورقة تُسَرَّب لها تفيد أن الجلوس وراء الأبواب المغلقة لا يحل المشكلة، فتحاول من جديد، ولا تنجح، فتعود للحزن، وتعود الورقة لتقول لها: إنَّ الحزن لا يحل المشكلة، ويأتى عجوز يحمل قنديلًا، ليساعدها، فيمنعه الحرَّاس، فتطلب إحضار كل من يحمل قنديلًا، وإذ يأتى حملة القنديل بأنوارهم تأمر بفتح الأبواب وهدم الأسوار، فيدخل الناس بقناديلهم المشعَّة، وتدخل الشمس إلى القصر، وتتوَّج ملكة.

تُرْوى القصة بلغةٍ سهلةٍ، وسياقٍ مشوِّقٍ ينتهي إلى دلالة واضحة هى أنَّ العمل يحقق الإنجاز، وأنَّ على الحاكم ألا يغلق أبوابه أمام الشعب، وأنَّ عليه أن يرى مشكلات الناس فى الضوء. للقصَّة حلاوة الحكاية الشعبية وبناء القصَّة المحكم الناطق بالدَّلالة من دون تدخُّل الرَّاوى.

وكتب توفيق زياد قصة طويلة للأطفال، عنوانها: "الصيَّاد وديك الجن"، وهى تحكى قصَّة صيَّاد اسمه عباس، كان أشهر صيادي النَّاحية، وكان المركز الأوَّل محجوزًا له دائمًا لدى إجراء مسابقات الصيد، لكنه يُفاجأ، ذات يومٍ، بأنَّ جاره اصطاد أكثر من ضعف ما اصطاده هو، فيسأله، فيعرف أنَّه يستخدم طائر حجل فى صيده، كان هذا الطائر السمين يصوّت، فتأتى الحجال، فيصطادها الصيَّاد، فيقول عباس: هذه طريقة غير شريفة، فيقول الصياد الآخر: وماذا يهمّ؟ وبحركةٍ لاشعورية أدار عباس ماسورة بندقيته نحو الديك، وضغط على الزناد ضغطة شحنها باشمئزازٍ كبيرٍ، وانطلقت رصاصة، وعباس ما زال يتمتم: هذا جاسوس يجنى على بنى جنسه.

دلالة القصَّة واضحة، وقد نطق بها عباس، وهى دلالة وطنيَّة سياسيَّة، كما كانت دلالة قصَّة "القنديل الصغير" تركِّز على أهمية العمل وصفات الحاكم، وأن الحزن والبكاء والانزواء أعمال غير مجدية.

نشأة ومراحل تطوُّره:

أدَّت نكبة ١٩٤٨ إلى هجرة معظم سكان فلسطين، وخصوصًا سكان المدن، وكان معظم من بقى من أبناء الرِّيف. سعى الباقون، فى البداية، إلى توفير سبل البقاء فى وطنهم، ويقول محمود أبو فنَّة: إنَّه حتى سنة ١٩٨٧ لم يتجاوز عدد الأعمال الأدبية الموجَّهة للأطفال، والتى صدرت باللغة العربيَّة ثمانين كتابًا.

وإذ يؤرِّخ فنَّة لأدب الأطفال الفلسطينى، فى فلسطين المحتلَّة، يتحدَّث عن ثلاث مراحل رئيسية فى مسيرة أدب الأطفال المحلى، هى:

المرحلة الأولى: تمتد حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين، وتمتاز بقلَّة ما أُلِّف للأطفال، إذ صدر الكتاب الأول الموجَّه لهم سنة ١٩٥٤، وهو مسرحية "ظلام ونور" لميشيل حداد وجمال قعوار، تلته سنة ١٩٥٦ المجموعة الشعرية "ألحان الطالب"، لجورج نجيب خليل، ثمَّ أصدر الأديبان محمود عباسى وجمال قعوار خمسة عشر كتابًا للأطفال، وقد ذكر محمود عباسى أن الحافز لكتابتهما للأطفال كان التأثر بما وجداه فى المجتمع اليهودى، فى البلاد، من عنايةٍ واهتمامٍ بالغين بالأطفال. ويلاحظ أنَّ الكاتبين تأثرا فى كتابتهما بكتابات كامل كيلانى، وبدا ذلك فى ناحيتين: أولاهما العودة إلى التراث والحكايات والأساطير المقتبسة والمعربة، وثانيتهما الكتابة باللغة الفصحى، والعناية بتجويد أسلوب الكتابة بها.

المرحلة الثانية: تبدأ هذه المرحلة بعد هزيمة ١٩٦٧، وتمتد حتى نهاية الثمانينيات،

وفيها طرأ هبوط نسبى فى الكتابة للأطفال، وقد تكون الكتب الصادرة، فى العالم العربى، قد سدَّت بعض الفراغ، فى هذا المجال، خصوصًا بعد اتِّباع سياسة الجسور المفتوحة مع الأردن؛ حيث بدأت المئات، بل الآلاف، من كتب الأطفال العربية تصل إلى القارئ الصغير فى البلاد.

ورأى بعض الأدباء أنَّ هذه الكتب لا ترى إلى الواقع المحلى، ولهذا، فهى، حسب رأى سالم جبران، "ليست بديلًا لقصص محلية مستوحاة من آلامنا وأحلامنا، وتحاول أن تعرِّف أطفالنا، فى سنٍّ مبكرة، على قضايانا وهمومنا"، فبدأ بعض الأدباء بالكتابة للأطفال، ومنهم: سليم خورى، ومصطفى مرار، وسامى الطيبى، وعبد الله عيشان، وفاطمة ذياب، وعبد اللطيف ناصر.

عرفت كتابات هؤلاء الأدباء تحولاً واضحًا نحو الكتابة الواقعية، وعمل بعض الكتَّاب على "تطعيم" اللغة، خصوصًا الحوار بالنكهة المحلية في الألفاظ و"التعابير"، وبخاصة فى قصص المجموعة القصصية "قلوب بيضاء" لسليم خورى.

المرحلة الثالثة: تبدأ هذه المرحلة مع بداية التسعينيات، وتستمر حتى يومنا، وقد صدرت فى هذه المرحلة كتب كثيرة، كما ازدهرت الصحافة المحلية، ومن هذه الصحف: السندباد، مجلتى، الحياة والعصافير بإشراف محمد بدارنة، أفكار...، إضافة إلى تخصيص صفحات، أو زوايا، فى الصحف لأدب الأطفال. وقد أسهم "مركز أدب الأطفال العربى" الذى تأسَّس فى حيفا، سنة ١٩٩٥، فى ازدهار أدب الأطفال، ومعرفته، وحدث ما يمكن تسميته "هبَّة".

يلاحظ محمود أبو فنَّة أنَّ أدب الأطفال، فى هذه المرحلة، عرف تحسُّنًا فى الإخراج الفنِّى، وتوجُّهًا إلى مرحلة الطفولة المبكرة – ما قبل المدرسة، وتخفيف حدة الوعظ والتعليم، ومراعاة المستوى اللغوى للأطفال، وبروز أدب الأطفال الواقعى، وزيادة حظ شعر الأطفال، وزيادة تمثيل المرأة فى الكتابة للأطفال، وعدم تمثيل جميع الأجناس الأدبية، فالمسرحية والرواية والخيال العلمى تكاد تكون غير موجودة، وعدم التطرُّق للقضايا القومية...[1].

أسماء أدباء ومؤلَّفات:

وإنَّه لمن الأمور الدَّالة، فى هذا الشأن، أن يختار محمود أبو فنَّة عينة للدراسة تقتصر على أدب الأطفال المحلِّى الأصيل الذى كتبه أدباء محليون تضمُّ ثلاثين كتابًا فى مجال القصة، وعشرة كتب فى مجال الشعر، وفى ما يأتى نذكر أسماء الأدباء، الذين شملتهم هذه العينة، وأسماء مؤلَّفاتهم؛ وذلك لنتعرف إلى الأدباء الفلسطينيين فى داخل الأرض المحتلَّة الذين يكتبون أدب أطفال:

أ- النصوص النثرية:

مصطفى مرار: المشروع، ابن المعلمة نعيمة.

سليمة خورى: قلوب بيضاء، أجنحة العواطف.

عبد اللطيف ناصر: القاق والبلبل والدورى، ملكة جمال الزهور، صوص فادى.

أحمد هيبى: البائع الخجول، العيد الذى لم اشترك فيه.

---

(1) راجع: منتديات ستوب www.stooob.com السيرة الذاتية، محمود أبو فنَّة.

علياء أبو شميس: لميس والكيس، سنّ الغزال.

عبيدة بلحة: وكبر سامر، فدوى واللون الأحمر، فرح ومرح والكرة الذهبيَّة.

محمد على طه: وجبة فطور، العصفورة العجيبة، ماذا قالت الطيور؟.

فاطمة ذياب: كعكة العيد، جدَّتى وأيَّام زمان، نجوم الظهر، الفصول الأربعة، الحذاء.

سعاد دانيال بولس: حسام الذكىّ.

آمال كرِّينى: عيد ميلاد حبيب.

عايدة الخطيب: عيد ميلاد شادى.

نادر أبو تامر: سوار تبحث عن سنِّها، القرية التى نسيت اسمها، ساعدنى يا أبى.

القاهرة صبَّاغ عبد الحىّ: الولد والبحر.

ب- النصوص الشعرية:

فاضل جمال علىّ: خدّى كالورد، لي الدنيا، على طبيعتى أنا، إنسان.

فاروق مواسى: أغاريد وأناشيد.

حنا أبو حنا: أغانى غصن الزيتون، دنيا الأنغام.

جمال قعوار: ألحان الصغار.

شكيب جهشان: طيارة حراميَّة.

سليمان جبران: صغار لكن...

محمود مرعى: الصداقة.

عايدة الخطيب: أشعار للأطفال[1].

نماذج من كُتَّاب أدب الأطفال:

ابتسام مبارك: تعيش الكاتبة المقدسية ابتسام مبارك فى أمريكا، وقد انتقلت إلى رام الله مؤخَّرًا، وعملت على عقد "ورشات عمل" للأطفال عن الكتابة الإبداعية.

وقد نالت جائزة أدب الطفل العربى سنة ٢٠١١ عن قصتها: "التاء المربوطة"، وذلك فى البرنامج الإقليمى لتطوير أدب الطفل، لدى مؤسسة "أناليد". وقد استوحت الكاتبة قصتها من واقع الطفل الفلسطينى وخياله، فقد كان كثيرٌ من الأطفال الذين عملت معهم يشعرون أنَّ "التاء المربوطة" تشبه الأسير، وهو مكبَّلٌ، أو تشبه عائلة الأسير قبل فكِّ أسره.

تقول مبارك: مجال أدب الأطفال وضعه صعب فى المجتمع العربى، وأنا أسعى إلى تقديم ما يشحذ اللغة العربيَّة والهوية الفلسطينية بشكلٍ أساسى، وما يميِّز قصتى هذه المرة هو أنى اعتدت الكتابة العالمية باللغة الإنجليزية، لكنها المرة الأولى التى أكتب فيها بالعربية، الأمر الذى يؤكِّد للعالم أنه، وإن حاولت بعض الدول أن تخفى وجودنا عن الخريطة

---

(1) راجع: محمود أبو فنَّة، دلالة المكان فى أدب الأطفال المحلى، مجمع اللغة العربية، ٢٠١٢/٨/٣٠، www.arabicac.com.

السياسية، أنَّنا موجودون بعلمنا وإبداعاتنا وطنيًا وعالميًا.

وعن اسم قصتها، قالت: أنا أعتمد اللعب على الحروف العربية، لتأكيد أصالة اللغة من نحوٍ أوَّل، وليكون ذلك مدخلًا لمعالجة قضايا أشعر بأنها قابضة على القلب والعقل العربيين من نحوٍ ثانٍ، فكلمة الحرف مثلًا تبدأ بالحاء، أي الحرية...

آمال كريِّنى: من سكان قرية "كفرياسين" الجليلية، تكتب الشعر والقصَّة وأدب الأطفال، درست أدب الأطفال دراسة جامعيَّة، ودرَّسته. كتبت شعرًا للأطفال بالمحكية المفصَّحة، وكتبت قصصًا قصيرة لهم، نشرت الكثير منها في صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية، وهى رسَّامة أيضًا، وقد رسمت صور بعض الكتب التى ألَّفتها، **من مؤلَّفاتها القصصية:** "مروة الصغيرة"، "قطرة ماء"، "عيد الحب"، "طائرة ورق" (مع شريط مغنَّى)، "بلبل بلابل"، "أنا أكبر"، "حديقة أم على"، **والشعرية:** "أناشيد للأطفال" (مع شريط مغنَّى)، أنا ولد صغير"، "سأغنى لطفل صنع البطولة"، "يا ضمير العالم، اصح"، وهذه الأشعار ملحَّنة ومغنَّاة.

تقول آمال فى قصيدة بعنوان: "أنا ولد صغير":

"أنا ولد صغير
بَسّ قلبى كبيرْ
أنا راسى صغير
بس عقلى كبيرْ
أنا بعرف شو عَمْ يصيرْ"

وتقول فى القصيدة أيضًا:

"يا عالم يَلاَّ هَدِّى
أولاد صغار يا جدِّى
بوموتو وهنِّى قدِّى
بدنا سلام يا ربى...
سلام عادل يا جدِّى
وتفرح يا شعبى وبلدى
والعالم كلُّه حَدِّى
وين السَّلام يا ربِّى
سلام عادل يا جدِّى"

وتقول فى قصيدة أخرى بعنوان: "رايحين عَ الروضة":

"يا عَمِّى يا بُو أمينْ
عَبِّ السيَّارة بانزينْ
عَ الرَّوضة إحنا رايحين، فيها آمال معلِّمتنا
فيها نرسم وردة ونهز، فيها نرسم سمكة وبحر

كعكة عيد نوكل شهر ونغنِّى أغانينا...
روضتنا فيها ألعابْ ونقرأ القصَّة من الكتابْ
والزَّوادِة وَرَا البابْ خَبَّيناهَا بشنطِتنا"

هذه القصيدة كتبتها باللهجة العاميَّة القريبة من الفصحى، وهى على وزن "القرَّادى" الجميل، والكثيرون من شعراء الزَّجل والعاميَّة يكتبون عليه، وهو يصلح لكلِّ المواضيع. يمتاز هذا الوزن بموسيقاه الرنَّانة سريعة الإيقاع والحماسيَّة، ويصلحْ دائمًا للتلحين والغناء...

وتقول فى قصيدة "مشوار":

"مشوارمشوار
يلاَّ نروح مشوارْ
كروم الزيتون الحلوه
عم تستنَّى ولادها لِصغارْ
ومنحمِل هالشقشاقة
ومنفرط زى الكبارْ
ومنلقط حبّ الزيتون إحنا الحلوين الشُطَّار
حبِّهْ خضره
وحبِّه سمرَا
بيصيرُوا قنطارْ
رَصَّت الماما وكبسَتْ
كوم الزيتون الـ بالدَّارْ
دَرَسنا وتهنَّينا
ومن المعصرَه
اشترينا
أطيب زيت تعشَّينا
من كرم أبو خطَّار"

ومن قصص "بلبل بلابل" نقرأ: "قصَّة عيد ميلاد حبيب".

هذه القصَّة تتحدَّث عن طفلٍ، يريد أن يحتفل بعيد ميلاده مثل باقى الأطفال، ويريد أن يدعو أصدقاءه ويشترى لهم الكعك والحلويات وغيرها، ولكن حالته الماديَّة لا تسمح له بذلك، فيبكى الولد كثيرًا، فتهديه الجدَّة هديَّة عاديَّة، وتقول له: إذا وشوشتها بجملةٍ عجيبةٍ غريبةٍ تصبح الهديَّة سحريَّة، وبعد ذلك يبدأ الطفل بتجربةٍ ومرحلةٍ جديدةٍ من حياتِه مفرحة جدًّا، ويحلمْ بكلِّ ما أرادْ، ويوقظه والده في النهاية فيدرك أنَّه كان يحلم... ويتساءل: هل كنتُ أحلم؟! وتنتهى القصَّة باحتفال الأهل وبكعكة خبزتها الأمُّ، ويرضى الطفل وأهله.

القصَّة إنسانيَّة واجتماعيَّة... وفى بعض أجزائها واقعيَّة بحتة، ويلحظ فيها الجانب الفانتازى الخيالى... (هديَّة جدَّته السحرية)، والقصَّة ذات طابعٍ ترفيهى فتُفرح وتسلِّى الطفل، فيستمع إليها بحبٍّ وشغفٍ وانسجام"(١).

---

(١) أدب الأطفال للكاتبة الشاعرة آمال كريِّنى، "ديوان العرب"،

تبدو تجربة كريّنى متميِّزة؛ فهى تكتب الشعر والقصَّة، وترسم، إنتاجها غزير، ونصوصها قصيرة، ولغتها عاميَّة مفصَّحة، قد تكون هذه اللغة سهلة التلقِّى، لكنها تخاطب جمهورًا محدَّدًا هو القادر على فَهْم مفرداتها، ما يجعل أدبها محلِّيًا، ولا أفق عربيًا له، إضافةً، وهذا هو الأهم، فإنَّ هذا المستوى من اللغة العربية، يفقد الطفل العربى فى فلسطين المكوِّن الأساس فى هويته، وهو المكوِّن الذى يريد المحتل / المستوطن سلبه، ويسعى إلى تحقيق ذلك بمختلف الوسائل، وقد أدرك الأدباء الفلسطينيون هذا الأمر، وعملوا على أن يمتلكوا هذا المكوِّن، الذى يكاد يكون المشترك الوحيد الموحِّد للعرب فى هذه الأيام.

الخطاب الشعرى، فى القصيدة الأولى، بسيطٌ وعميق فى آنٍ، يؤدَّى بضمير المتكلم، فنصغى إلى الطِّفل يعرِّفنا بنفسه...، هو صغير، لكن قلبه وعقله كبيران، ويعرف ما يحدث، فالأطفال الذين هم فى عمره يموتون...، ولهذا يهتف بأنَّه يريد السلام، وليس أى سلامٍ، يريد سلامًا عادلاً وجدِّيًا...، وهذا نداءٌ إنسانى يصغى إليه محبو العدالة والسلام جميعهم.

فى النَّصِّ الثانى المعتمد وزناً شعبياً، يتغنَّى الطفل نفسه، فى زمنٍ يسود فيه السلام العادل، بمظهرٍ من مظاهر حياة الأطفال العاديَّة، فهو يفرح بالذهاب إلى الروضة ليتعلَّم، ويرسم، ويأكلٍ ويغنِّى...، وأشياء هذه الحياة متوافرة له، ما يطرح سؤالاً عما يشعر به الطفل الذى يحرمه المحتلُّ من هذه الحياة وأشيائها، فى مكانٍ غير بعيدٍ عن المكان الذى تنشط سيارة "عمى بو أمين"؟! قد يستدعى هذا الواقع الآخر، فتتشكل ثنائية ضدِّية، تكشف همجية المحتل الذى لا يريد السلام العادل، ويصادر الحياة الطبيعية وأشياءها.

أمَّا القصَّة، فتلتقط لحظة مهمة من حياة طفل، وتروى وقائعها، فتكشف واقعًا وترى إليه فى الوقت نفسه الذى تسلِّى فيه الطِّفل وتمتعه.

فى الختام:

فى الختام، يمكن القول: إنَّنا حاولنا تقديم معرفة بالأدب الفلسطينى، فتحدَّثنا عن أدب الأطفال فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وفى فلسطين المحتلة منذ العام ١٩٤٨. لا نزعم الإحاطة والتَّقصِّى، وحسبنا أنَّنا بذلنا جهدًا نرجو أن يكون مثمرًا. وقد بدا أنَّ هذا الأدب خطا خطوات التأسيس، ودلف إلى مرحلة التأصيل رائيًا إلى قضيَّته الأساس، وهى البقاء/ الوجود والسعى إلى الانتصار فى مسار التحرير الطويل، وقد جسَّد رؤاه إلى هذه القضيَّة فى نصوصٍ يتصف معظمها بخصائص أدب الأطفال الجميل الملائم للمتلقِّين الموجَّه لهم.

.www.divvanabarab.com